ضيوف ابن سعود[1]

ج. د. فان بيرسم

ترجمة: د. سعود بن دخيل الرحيلي
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب -جامعة الملك سعود

لم تعد مسألة الدخول إلى نجد بالنسبة إلى الأطباء الأمريكيين المبعوثين شيئاً جديداً. إذْ اسْتُدْعِي الدكتور هاريسون للقدوم أولاً من قبل الملك لعلاج ابنه عام ١٩١٨م (١٣٣٦هـ). ومنذ ذلك الحين، قام الدكتور ديم بِستِّ جولات طبية داخل نجد والأحساء، كما أنهى الدكتور ستورم حالياً جولته الطبية في نجد والحجاز بعد قضاء ثلاثة شهور في بلاد الملك.

وقبل سنتين استدعيتْ سيدة طبيبة وأخرى ممرضة لمرافقة الرجال الأطباء في بعثتنا. وفي هذه السنة حصل مبعوث غير طبي وابنه على إذن الالتحاق بالمجموعة الطبية؛ مما يؤكد أن الملك لا يخشى دخول الأجانب إلى مملكته. حيث عُرف عنه قوله: "نحن نعرف ما يجب أن نتجنبه، ونعرف ما يجب أن نقبله لمصلحتنا الخاصة".

ومع ذلك يجب أن نعلم أن لا أحد من الأجانب يستطيع الدخول إلى نجد دون إذن من ابن سعود؛ أي: من الملك نفسه. ويعد هذا الإذن هو جواز السفر. ولا يحتاج المرء بعده إلى شيء أكثر من المرور إلى الداخل، وهذا - بالنسبة لمجموعتنا على الأقل - يعني ضمان العبور

(1) G. D. Van Peursem. Guests of King Ibn Saud, The Muslim World, Vol. 26 , 1936. pp. 113 - 188.

الحر، والحماية على الطريق، ومد يد العون لنا من جميع الموظفين الرسميين والمواطنين الذين نلقاهم على الطريق في هذه الحكومة العربية، لأن المرء إذا كان مقبولاً عند ابن سعود، فهو صديق كل الناس، وطريقه ميسور، فلا أسئلة تُلقى عليه وكل شيء في الدنيا على ما يرام. غير أنه من الصعب أن نتصور ما يمكن أن يحدث لغير المرحب بهم.

وفي فصل الخريف الماضي تلقى الطبيب المسؤول عن مستشفياتنا دعوة من الملك بالمجيء إلى نجد، ويصحب معه سيدة طبيبة، وأخرى ممرضة، ومجموعة من مساعدي الأطباء. وفي الإجابة، أرسلنا رسالة نسأل فيها: هل أنا وابني البالغ من العمر خمس عشرة سنة قد شملنا إذن الانضمام إلى المجموعة؟ ومع أن السيدة فان بيرسم (زوجة الكاتب) لم تكن سوى ممرضة، فهي معروفة في نجد باسم "الدكتورة". وقد أصابت الدهشة معظمنا من العرض السخي الفوري الذي قدمه الملك. وفي حد علمي، لم تكن هناك قيود مفروضة علينا، ولا شيء أكثر من هذا يمكن طلبه. وهذا كله يُظهر مدى الثقة التي وضعها الملك في أطباء إرساليات البحرين.

وأنا - كواحد - كنت أجني ثمار ثماني عشرة سنة من الجهد والصداقات في البعثات الطبية. وكان عرب نجد، من الملك إلى من هم دونه لهم عقول ذات توجه طبي، يوضح ذلك أن الطبيب حينما يكون متقناً عمله أو حتى لو لم يبلغ درجة الإتقان التام فإنه يحظى باحترام عالٍ بين الناس، ومن هذا المنطلق تتجلى نسبة الاحترام التي يحظى بها جراحون مدربون تدريبا أمريكيا، ويؤكد هذه الشهرة التي يتمتع بها الدكتور ديم - بعد الملك - عند عرب وسط الجزيرة[٢].

(٢) في هذا مبالغة من الكاتب، وربما منشأ ذلك الاهتمام الذي وجدته البعثات الطبية والحرص عليها من عامة الناس (المحرر).

ومن الوقت الذي غادرنا فيه البحرين في فبراير إلى حين عودتنا إليه في يوليه، كان أفراد المجموعة كلهم ضيوف الملك. فالقارب الذي أقلنا من البحرين إلى العقير كان له. وكان البحارة مواطنين من نجد. وكانت اللحوم والأرز المستهلكة من بداية الرحلة إلى نهايتها على حساب الملك. وقد انتظرتنا في العقير ثلاث سيارات لتنقل المجموعة إلى الهفوف. وهناك تولى رعايتنا الرجل النشط دوماً، محمد الطويل رجل الجمارك ووكيل الملك. وقد تطلَّب الإعداد للرحلة الطويلة الشاقة إلى الرياض يومين. وأي نقص كان يحدثه الإسراف في النفقة تتم تغطيته من ميزانية الملك. ولكن حين يتعلق الأمر بالحصول على نقود، تُعمل لذلك تقارير دقيقة.

وقد وضع الملك تحت تصرفنا سيارتين وثلاث شاحنات لبقية التجوال من الهفوف إلى الخفس إلى الرياض وحائل وبريدة وعنيزة والعودة ثانية إلى الرياض والهفوف. كما تطلَّب الأمر توفير شاحنتين لصناديق العلاج، وصفائح البنزين فقط. وحمل السائقون صفائح من البنزين تسع ٨٥ جالوناً، وحين وصلنا إلى حائل أخبرونا أنه لم يكن معنا من البنزين ما يكفي لرحلة العودة؛ إذ كان استهلاك البنزين على هذه الطرق الرملية هائلاً، بل مفرطاً في الحقيقة. ولكن البترول كان أيضاً على حساب الملك، فلم القلق؟! وقد تطلب الأمر حمل أربعين قربة من الماء؛ حيث كانت السيارات تلتهم قدرًا هائلاً من الماء والبنزين في هذه الأجزاء، لأن المحركات كانت تجري على سرعة بطيئة معظم الوقت. وبالإضافة إلى هذا كله، حملنا ثلاثة خراف وكيسين من الأرز، وكميات من القهوة والشاي...، وكنا في الواقع أشبه ما نكون ببارجة محيطية مكتفية بذاتها، وبمحتوياتها للفترة الزمنية المستهلكة والمسافة المقطوعة.

وكان الأمراء في حائل وبريدة يتلقون من بعض المراكز أوامر بتزويدنا، وبمنح الدكتور كل ما يطلب. فمن هذه الناحية لم يخب لنا

أمل، ولم يُرفض لنا طلب أبداً. ولم يكن كرم الضيافة أمراً غريباً في جزيرة العرب. ولكن لا أحد في نجد اليوم يستطيع أن يكرم ضيوفه بمثل تلك الدرجة من السخاء إلاّ الملك. غير أن هذا كله بالنسبة لابن سعود لم يكن سوى نقطة في دلو. حيث كان يأكل على مائدة الملك آلاف الناس يومياً.

لا أحد في نجد اليوم يستطيع أن يكرم ضيوفه بمثل تلك الدرجة من السخاء إلاّ الملك

وفي الخفس - وهو مخيم الملك الشتوي - تمشيت أنا على المطابخ المفتوحة في الهواء الطلق، وحدَّقتُ بدهشة صبيانية مستغرباً من عدد توانك الطبخ وحجمها؛ لأنها هكذا كانت توانك بالفعل. بعض هذه القدور يبلغ قطره ثمانية أقدام، وهو من الضخامة بحيث يسع نصف درزن من الخراف دفعة واحدة، ويستوعب بعد ذلك أكياساً من الأرز المطبوخ للضيوف البدو.

لا يكفي - بالنسبة للعربي - أن يزود المضيف ضيوفه بالطعام ووسيلة النقل، بل لابد أن يمطرهم بالهدايا كذلك. ومن المألوف تماماً في الرياض العاصمة أن يعود الزائرون بحلة كاملة من الملابس الجديدة مع بعض النقود. ونوعية الملابس، وكمية النقود كلها أمور تقررها وظيفة الضيف ورتبته وأهميته. ونحن - مجموعة من ثلاثة عشر شخصاً - كلنا أتينا لتقبل الهدايا في يوم مغادرتنا. لم يُستثن أحد. وبُذلت عناية عظيمة في تحديد مركز كل واحد في المجموعة، ثم وزعت الهدايا تبعاً لذلك. وكانت تلك عادة ونظاماً لامس أعمق مشاعرنا، لكنه بالنسبة للملك ومساعديه لم يكن أكثر من روتين يومي عادي.

وكان الشيء الذي يثير إعجاب المرء حين يكون في حضرة الملك (عرباً وغربيين على حد سواء) هو بساطته مع صفات أخرى أصيلة لا تُنكر. أو هل المبالغة القول: إن هذه البساطة هي سر قوته؟ في صالة الاستقبال يقوم الملك بمعظم الحديث. يطرح أسئلة كثيرة،

ولكن كيف انتقلت الدعوة الإسلامية إلى هذا الجزء من العالم الإسلامي؟ كيف استطاعت أن تجد لها موضع قدم بين الأقوام الزنجية وبين الحضارات الأفريقية داخل السافانا الأفريقية؟

لقد شقت الدعوة الإسلامية طريقها إلى غرب القارة الأفريقية عبر عدة مسالك أهمها - على وجه الإطلاق - الطريق الساحلي عبر شمال أفريقيا حتى بلاد السنغال ثم الانطلاق منه نحو قلب القارة من الغرب. والطريق الآخر مراكب التجارة بين الشمال والجنوب عبر محطات تجارية راسخة ومزدهرة حيث نجح التجار والدعاة في أن يحملوا هذه الدعوة في رحلتهم وتجوالهم هنا وهناك.

وكان هذا الطريق التجاري هو الذي حمل قبائل البربر، وقبائل بني هلال وبني سليم إلى هذه الأصقاع، وساعد هذا على تشكيل أطر ومجتمعات جديدة نقلت الدعوة سلميًّا إلى عمق القارة، ولم تلجأ هذه الجماعات المهاجرة إلى استخدام العنف إلا دفاعا عن أتباعها، ولتثبيت مبادئ الدعوة، ولا إكراه في الدين[3].

كانت الدعوة الإسلامية قد ازدادت مكانة ووجدت حماسة من خلال جهود المجاهد عقبة بن نافع الذي حمل قبائل الطوارق على الدخول في الدين الإسلامي، واستطاع القضاء على المقاومة المغربية، ولما فرّت القبائل أمامه تعقبها حتى حدود تلمسان وتدفق بقواته في المغرب الأقصى حتى وصل إلى طنجة، وواصل تقدمه حتى مدينة أغمات حاملا لواء الدعوة الإسلامية إلى هذه الأقوام، وظل يواصل المسيرة ويعد الجيوش حتى وصل إلى مدينة نول على ساحل المحيط الأطلسي، وأسس مسجدا في مدينة ماسة[4].

كان هذا الزحف الإسلامي الكبير قد أدخل الدعوة الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي، والممالك الوثنية هناك، لكن شاء الله أن يموت عقبة بن نافع

أثناء صراعه مع جماعات البربر، وباستشهاده أصيبت الدعوة بنكسة مؤقتة، وكادت جهود المسلمين أن تتلاشى في هذه الجهات(٥).

وبعد أن استقامت الأحوال لبني أمية، عادت الفتوحات من جديد، وجاء موسى بن نصير حاملا لواء الإسلام، وانحدر إلى منطقة السوس، واستمرت الدعوة بين المدّ والجزر طوال العصر الأموي لكن توغلها الحقيقي جاء على أيدي الطوارق الذين دخلوا في الإسلام في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) واستطاعت هذه القبائل أن تشكل حلفا بزعامة قبيلة لمتونة من أجل التوسع جنوبا ونقل الدعوة إلى قلب مملكة غانة الوثنية(٦).

لكن فشلت قبيلة لمتونة في تحقيق هدف المسلمين في الدخول إلى قلب غانة، بل وأصابها الضعف والهوان، وتركت راية الجهاد إلى قبيلة أخرى هي جدالة وزعيمها يحيى بن إبراهيم الذي أدرك بثاقب نظره وخبرته الطويلة في هذه المناطق أن أمر الدعوة لن يتحقق إلا بتوحيد القبائل خلف قيادة مسلمة وتحت زعامة فقيه مثقف يُعَلِّمُ الناس أمور دينهم ويجمعهم على حب الجهاد والتضحية، ووقع اختياره على الشيخ عبد الله بن يسن الذي كان على دراية بالصحراء، ووصل في عام ١٠٤٠م إلى خيام جدالة ليبدأ مهمته في نشر الدعوة(٧).

هاجر الشيخ عبد الله بن يسن جنوبا إلى ديار الملثمين، وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بالدين الحنيف، واستقر في جزيرة نائية في مصب نهر السنغال وعاش حياة الزهد والمرابطة وأطلق على أتباعه لقب المرابطين، وشكل هذا الرجل جيلاً جديدًا من المتحمسين للدعوة، كما أحدث وعيا قويًّا بين أتباعه وكوّن جماعة فدائية هدفها القضاء على البدع والأهواء الدنيوية(٨).

وزاد أتباعه، وكثر الناس من حوله وتصدى لمسؤولية نقل الدعوة إلى أكبر